مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 18، العدد 72 (خريف 2007)، ص 158

تغريبة بني فتح:
أربعون عاماً في متاهة فتحاوية

وليم نصار
رام الله: دار الشروق، 2005. 517 صفحة.

في هذا الكتاب يقدم لنا وليم نصار، وهو المناضل الفتحاوي العتيق، سيرته الذاتية وخلاصة تجربته من خلال مسيرة الكفاح الفلسطيني التي جسدتها حركة "فتح". والكتاب مفيد لأي مثقف أو باحث مهتم بتاريخ "فتح"، وخصوصاً أن الكتاب يغطي بدايات العمل العسكري لـ "فتح" (1964 – 1968) والمراحل الأولى من نضال الحركة الأسيرة في السجون، وهي مراحل تتميز، في ميدان التغطية، بـ "الثقوب السوداء".

انزلق كثير من السير الذاتية التي كتبها سياسيونا أو مناضلونا القدامى إلى فخ تضخيم الذات، فاختلطت الأمور بين حقائق وأحلام وأوهام بحيث لا تعود تعرف الغث من السمين. وأنت تخشى أن يكون الكتاب مجرد تغريد في السرب، مجرد إعادة إنتاج الأسطورة. فـ "فتح" كحركة سياسية، والكتاب عنها بقدر ما هو عن صاحب السيرة، كانت دائماً معنية وواعية في آن واحد لأهمية التأريخ في بناء الشرعية. وقد أدرك قادة الحركة، منذ وقت مبكر، أن التأريخ لها هو في جوهره عامل قوة وصراع: صراع على الشرعية في المجتمع الفلسطيني، وصراع على السلطة في النظام السياسي الفلسطيني، وصراع على القوة بين آباء "فتح" المؤسسين.

غير أن الكتاب يخالف هذه التوقعات. فمع أن نقد التجربة لم يكن هدف الباحث قط، إلاّ إننا نجد أنفسنا مع كتاب بلا ادعاء، فيه كثير من الصدق والبساطة، خال من دسم العنتريات، مع قدر "خفيف" من الشجاعة.

عنوان الكتاب بحد ذاته جريء. فـ "بني فتح" يشير إلى بنية لم تتجاوز، أو انتهت، بنية القبيلة. أمّا "المتاهة" فهي مثل "نداهة" يوسف إدريس تدور حول ذاتها في دوائر تصل في النهاية إلى نقطة الصفر. وسِيزيف الفلسطيني ليس كسِيزيف الإغريقي الذي يعود بعد كل فشل إلى ارتقاء الجبل من حيث أتى، بل عليه أن يحمل في كل مرة صخرة يفوق وزنها صخرة المرة السابقة، وأن يصعد جبلاً أعلى.

مشروع الكتاب بدأ سنة 1980 بعد خروج وليم نصار من السجن نتيجة صفقة لتبادل الأسرى: أسيران فلسطينيان هما وليم نصار (المحكوم بخمسة مؤبدات) ومهدي بسيسو (أبو علي)، في مقابل عميلة "الموساد"، الجاسوسة الأردنية الأصل "آمنة المفتي" (ص 338 – 340).

والسجن برزخ فاصل في حياة وليم نصار، حياته التي يتم تحقيبها إلى ما قبل السجن وخلاله وما بعده. كان وليم نصار من أشهر وأقدم سجناء المقاومة في نهاية الستينيات وحقبة السبعينيات؛ في الواقع هو رمز الحركة الأسيرة آنذاك، إلى درجة أن إحدى مجموعات "أيلول الأسود" بقيادة الشهيد علي طه، التي قامت بعملية اختطاف طائرة سابينا البلجيكية وتحويلها إلى مطار اللد سنة 1971، كانت تحمل اسم "مجموعة وليم نصار".

فكرة الكتاب بادر إليها بلال الحسن عندما كان يعمل في صحيفة "السفير" اللبنانية. فبعد أيام على تحرير نصار واستقباله استقبال الأبطال، جاءه بلال الحسن وطلب إليه تسجيل مذكراته. كانت الفكرة أن يروي وليم قصته لأحد محرري الكتب المجربين ليقوم بصوغها مجدداً. شكره وليم قائلاً: "أنا أهوى وأجيد الكتابة"، ومن ثم بدأ كتابة تجربته.

لكن بعد أن أمضى عدة أشهر في بيروت أصابه الإحباط. فالوضع العام للثورة الفلسطينية، المتناقض مع مخيلة الأسر، علاوة على الدور الخامل لـ "بيروقراطية" الفاكهاني، والتنافس "الباطني" بين الآباء الكبار، أمور كلها عرقلت تقديم أي شيء يذكر في موضوع الأسرى والمعتقلين في السجون الإسرائيلية (ص 360 – 362، 374). ظلت مسودة الكتاب في الأدراج، حتى وفاة الرئيس ياسر عرفات، وعندها نُفض الغبار عنها "وكان لي أربعون سنة في حركة فتح. فأردت أن أكتب مرحلة، هي المرحلة الأهم في تاريخ الإنسان." لكن الكتابة بعد مضي زمن طويل على الأحداث تترك بصماتها على الكتاب. فبعض الأحداث مذكور لكن من دون تفصيلات، والتسلسل الزمني يعاني أحياناً وطأة الأيام، وخصوصاً أحداث الفترة الأولى، وقلة استخدامه التواريخ الدقيقة واضحة.

الكتاب مقسم إلى ثلاثة أبواب تعكس مراحل حياة صاحب السيرة:

(1) ما قبل السجن: أي منذ ولادته، مروراً بعائلته وطفولته ودراسته ومسيرته الكفاحية، حتى اعتقاله في مطلع سنة 1968.

(2) مرحلة السجن: وتغطي 12 عاماً من حياته. وفيها يعالج حياة الشبان الفلسطينيين في السجن، ولا سيما في سجن الرملة، وصراع البقاء في مواجهة إدارة السجون والأساليب العاتية للاستخبارات، والبرامج النضالية حتى تحريره سنة 1980.

(3) مرحلة ما بعد السجن: وهي مرحلة بلا معنى، وبلا إنتاج.

ولد وليم نصار في القدس بتاريخ 9 كانون الثاني/يناير 1946 لأب فلسطيني مسيحي وأم لبنانية يهودية تنصرت، وكانت ذات ثقافة فرنسية. إن يهودية الأم هي التي أعطت قصة ابنها بريقاً إضافياً. وأمه هي التي أعطته الاسم الأجنبي "وليم" لأنها كانت تعتقد أن "الأسماء الأجنبية أجمل من الأسماء العربية"، ولعل الاسم كان نتيجة تسوية ولقاء بين الأبوين على أرض محايدة. وفي أي حال فالمجتمع الفلسطيني برمته كان يؤمن بـ "أن الفرنجي برنجي"، وهذا انعكس على الأسماء أيضاً كما هي الحال في العالم العربي اليوم؛ فالأسماء الغربية تزين لافتات المدن والعلامات التجارية. غير أن وليم الذي تعلم في مدرستي المطران والفرير، بدأ يثور على بعض مظاهر الاختراق الغربي بتأثير من ظاهرة عبد الناصر. ومن القصص ذات المغزى في هذه الفترة امتعاضه من قيام الطلاب الفلسطينيين العرب بترديد النشيد الوطني الفرنسي (المارسييز) في مدرسة الفرير أواسط الخمسينيات، في الوقت الذي كانت فرنسا هي الحليف الأول لإسرائيل، وتقتل عرب الجزائر، وتعتدي على مصر (ص 19).

بدأ وليم حياته النضالية بانضمامه إلى حزب البعث وهو في سن الرابعة عشرة. وبعد عام أصبح المسؤول الحزبي في مدرسة المطران "فأصبحتُ فجأة في مركز المسؤولية المباشرة، وأعترف أنها كانت فوق طاقتي فلم أتمكن من توسيع نطاق التنظيم." ثم يروي لنا بعض النشاط السياسي للطلبة في القدس خلال الخمسينيات، وهي مرحلة غنية بالنضال عقبت نكبة فلسطين وأسست لولادة كثير من الأحزاب والتنظيمات (ص 19 – 20). لكن ما إن أعلنت "فتح" انطلاقتها المسلحة حتى استهوته، كغيره من الشبان الذين أسرتهم صورة الفدائي الملثم عابر الحدود، ومحطم قيود اللجوء ومرارة الاقتلاع وعجز الانتظار. غير أنه لم يستطع في البداية إقامة اتصال منتظم بحركة "فتح"، فعمل مع منظمة التحرير الفلسطينية. أمّا الحديث عن محاولات الاتصال الأولى بالحركة فيظهر إلى أي حد كانت القدرات التنظيمية واللوجستية لـ "فتح" في الضفة الغربية ضعيفة في مرحلة البدايات خلال العهد الأردني.

منذ البداية أظهر وليم نصار ميلاً إلى العمل العسكري؛ فها هو يتلقى أول تدريب عسكري للطلاب على يد الجيش الأردني في مدرسة تيراسانطة (عمّان) بناء على طلبه الذي أجين، مع أنه كان أنهى دراسته الثانوية. وكانت الحكومة الأردنية أدخلت التدريب العسكري إلى المدارس استجابة لطلب أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك. وعلى عكس ما يشاع، يقول وليم نصار أنه استفاد من هذه الدورة التي كانت تجربته الأولى مع السلاح (ص 29). بعد ذلك توجه إلى بيروت حيث درس في كلية هايكازيان. وخلال هذه الفترة، التي نشط فيها في المجال الطالبي، أقام علاقة راسخة بأبو جهاد. وتظهر قصص العمل العسكري – مع أنه لا يقول ذلك صراحة أو نقداً – كم كان الرعيل الأول، على الرغم من حماستهم وتضحياتهم، مجرد هواة. في الواقع يجد لهم العذر بقوله: "هكذا كانت (فتح) في تلك الأيام، عملاً بلا حساب للمخاطر."

من هذه القصص أن أبو جهاد أرسل إليه في أحد الأيام صفطاً (صندوقاً خشبياً) من الحلوى الشامية؛ وكانت العادة أن يجد وليم نصار منشورات التنظيم في قاع الصفط. هذه المرة فوجئ بوجود متفجرات وصواعق وقنبلة يدوية. فلا أحد أخبره عنها، أو ماذا يفعل بها، أو لمن يسلمها. وهو لم ير المتفجرات في حياته (ص 41). تدريبه الأول على المتفجرات (وهو الذي سيقوم لاحقاً بتدريب أعضاء "فتح" عليها) كان ليوم واحد فقط (ص 42 – 43). دوريته الأولى لعبور نهر الأردن انتهت بمأساة: فشلت المحاولة وغرق أحد المقاتلين (ص 122). غياب الحس الأمني في مرحلة التأسيس، التي تم البناء عليها على الرغم من توفر الإمكانات لاحقاً، تمأسس وعشش بسبب الاتكالية السائدة، وغياب المحاسبة والنقد واستخلاص العبر، وغياب عقلية توظف نظرية الاحتمالات.

إن هذا الأمر يفسر، إلى حد كبير، الأداء العسكري المتدني للمقاتلين الفلسطينيين على الرغم من تضحياتهم الجسيمة. ويفسر كذلك الحجم الكبير نسبياً لضحايا التدريب في قواعد "فتح" على الألغام والمتفجرات، وهما أهم سلاح في يد رجال حرب الغوار (واحد من الأمثلة، ص 89 – 90).

بعد سنة 1967، عندما اتجهت أنظار الشبان إلى حركة "فتح"، التي لم تُكسر إرادتها بفعل الهزيمة، شارك نصار في أول دورة عسكرية في الصين، وبعدها عبر هو ومجموعة من رفاقه نهر الأردن ليقيم بكهوف قريبة من قرية رمون

(رام الله) التي كانت إحدى قواعد الارتكاز الأولى (القاعدة الآمنة) في الضفة الغربية. هذه هي أول مرة تكتب فيها تجربة هذه القواعد التي شكلت المرحلة الأولى من استراتيجيا "فتح" بعد حرب 1967. وفكرة القاعدة الآمنة فكرة ماوية تأثر بها كوادر "فتح" الذين تدربوا في الصين وكان بينهم هاني الحسن الذي روّج وغيره هذه الفكرة. غير أن تجربة رمون، كغيرها من تجارب قواعد الارتكاز في قرى المغير (منطقة رام الله)، وبيت فجار والشيوخ (جنوب الضفة الغربية)، وقباطية وطوباس وبيت فوريك والتياسير (شمال الضفة)، تحطمت سريعاً؛ أولاً، بسبب الظروف الموضوعية: الطبيعة الجغرافية التي لا تسمح بهامش من الحركة أمام عدو يستخدم الطيران العمودي بكثافة، وبسبب المساحة المحدودة للضفة الغربية والكثافة السكانية المنخفضة. ثانياً، القدرات الكبيرة لأجهزة الأمن الإسرائيلية التي كانت تواجه فدائيين محدودي الإمكانات والتجربة والمعرفة.

إن تجربة رمون، التي لم تكن قاعدة الارتكاز الأولى لقوات "العاصفة" في الضفة الغربية بعد سنة 1967 لكنها كانت القاعدة الأولى التي حاولت استلهام النمط الصيني، انتهت باعتقال نصار واستشهاد معظم أفراد المجموعة، لتبدأ المرحلة الثانية والأهم من حياته.

مرحلة السجن

12 عاماً في السجن أمضاها جميعها في سجن الرملة ما عدا شهراً واحداً في سجن آخر. ومع أن تجربة سجن الرملة لا تعكس تاريخ الحركة الأسيرة – فلكل سجن، كما يقول نصار، تجربته الخاصة التي يجب أن تكتب وتوثق على حدة – فإنه يقدم لنا، قياساً على معظم كتابات "أدب السجون"، رواية أغنى وأوفى عن الحياة في السجون الإسرائيلية. وروايته في هذا الميدان أصدق وأقل ذاتية إلى حد كبير. ففي حديثه عن نضال الحركة الأسيرة في مواجهة آلة تستخدم أساليب التدمير النفسية، إضافة إلى التعذيب الجسدي القاسي، يشرح لحظات الصمود والانتصار من دون أن يغفل جوانب الضعف والانكسار. فروايته الشجاعة والمتوازنة تشبه، إلى حد كبير، سيرة المناضلة الأسيرة عايشة عودة التي وصفتها الكاتبة وداد البرغوثي بالتالي:

كثيرون كتبوا التجربة أو رووها ولكنهم كانوا دائماً الصامدين المنتصرين، أبطال المواجهة.. يفلسفون الهزيمة ويحولونها إلى نصر، ويفلسفون الضعف ليجبروه على أن يكون قوة. يحملون الضعف والانهيار لغيرهم، لرفاقهم ويصبحون أبطالاً. عائشة لم تفعل ذلك. عائشة قالت عن الضعف ضعفاً وعن القوة قوة. عرت المشاعر الحقيقية كشفتها، رسمت العالم الداخلي للمناضل بتفاصيله أين كبا وأين سما..... الصمود صمود، والاعتراف اعتراف. هكذا صورته الكاتبة بعيداً عن الشعارات والشعاراتية، لسبب واحد وهو أن الإنسان إنسان.

مرحلة التيه

في المرحلة الثالثة والأخيرة، وهي مرحلة الضياع والتيه – الشخصي والجماعي – التي تلت خروجه من السجن، يشرح نصار خيبة أمله في بيروت وتونس وعمّان والضفة الغربية. وعن هذه المرحلة يسرد أمثلة كثيرة لصراع السلطة بين الآباء والكوادر، والحسد والغيرة والمناكفات التي عطلت أي إنتاج. في الواقع كان يمكن اختصار هذه المرحلة غير الغنية إلى حد كبير.

والكتاب كان من الممكن أن يكون أفضل كثيراً لو دُفع إلى محرر يعرف تاريخ المرحلة، فيهذب لغته ويساعد الكاتب في تذكر بعض الأحداث والتفصيلات التي يختزنها في ذاكرته ولكنها تحتاج إلى مزيد من النبش والبحث، كقصة مقتل يوسف عرابي الغامضة، إلخ. والكاتب لم يستطع، مع محاولته الحياد والموضوعية، التحرر أحياناً من ولائه العميق لـ "فتح" وقيادتها، ليستخلص بشكل مجرد مغزى بعض المعلومات التي يوردها.

إن مذكرات وليم نصار تشكل دليلاً على أن المذكرات الشخصية يمكن أن تكون مصدراً مهماً لدراسة الحياة السياسية في زمان ومكان كتابتها فيما لو تميزت بالدقة والتواضع.

صالح عبد الجواد
كاتب فلسطيني

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx